الألفى أن يقع فى الشرك لولا أن لجأ إلى الاختفاء ثم الفرار إلى الصعيد ، وبذلك نجا بنفسه من الاغتيال . وبذلك تخلص عثمان بك البرديسى من منافسه وزميله القديم محمد بك الألفى ، وأمن على سلطته فى الحكم . واجتازت القاهرة خلال عام ١٨٠٣ حالة من التذمر بين أفراد الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وزاد من سوء الحالة نقص مياه النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) ، فأثر هذا النقص على حالة الزراعة ، واشتد الغلاء ، كما زاد اعتداء المماليك والجنود الألبانيين على ما بأيدى الناس من الأموال والغلال والمتاع ، فشكا الناس فى نوفمبر سنة ١٨٠٣ إلى كبار العلماء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الأمير إلى البكوات المماليك وطلبوا إليهم منع اعتداء العساكر على الناس .

وعمت الثورة فى أنحاء البلاد ضد مظالم المماليك ، وامتنع الناس عن دفع المطلوب منهم من ضرائب ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب .

وفى إبان هذه الثورة جاهر محمد على بإنضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة ، وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع الضرائب المفروضة ظلما وبلا حق ، وكسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب .

أما عثمان بك البرديسى فقد قابل هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ،